قال عليه الصلاة والسلام : إن للإسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

٢٩ شعبان ١٣٣٧ — ٧ المجلد ١٠ (ر ٣) ١٢٩٧ هـ ش ٣٩ مايو ١٩١٩

أعراب الشام

في القرنين السابع والثامن للهجرة الشريفة

جاء في الكلام على المملكة الشامية من الجزء الرابع من صبح الاعشى بيان عن العربان التابعين لها وبطون العرب أولو الامرة فيهم نلخص منه ما يأتي. قال:

﴿ البطن الاولى ﴾

﴿ آل ربيعة من طيء من كهلان من القحطانية ﴾

وهم بنو ربيعة بن حازم، بن علي، بن مفرج، بن دَغْفَل، بن جراح، وقد تقدم نسبه مستوفى مع ذكر الاختلاف فيه في الكلام على ما يحتاج اليه الكاتب في المقالة الاولى قال في «العبر»: وكانت الرياسة عليهم في زمن الفاطميين خلفاء مصر لبني جراح، وكان كبيرهم مفرج بن دَغْفَل بن جراح، وكان من إقطاعه الرملة. ومن ولده حسان وعلي ومحمود وحمار، وولي حسان بعده فعظم أمره وعلا صيته، وهو الذي مدحه الرياشي الشاعر في شعره. قال الحمداني: وكان مبدأ ربيعة أنه نشأ في أيام الاتابك زنكي صاحب الموصل، وكان أمير عرب الشام أيام طُتُكين السلجوقي صاحب دمشق ووفد على السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام فأكرمه وشاد بذكره. قال: وكان له أربعة أولاد، وهم فضل، ومراد، وثابت، ودَغْفَل. ووقع في كلام المسبحي أنه كان له ولد اسمه بدر. قال الحمداني: وفي آل ربيعة جماعة كثيرة أعيان لهم مكانة وأُبَّهة، أول من رأيتُ منهم مانع بن حديثة وغنام بن الطاهر، على أيام الملك

الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب. قال: ثم حضر بعد ذلك منهم الى الابواب السلطانية في دولة المعز أيبك والى أيام المنصور قلاوون زامل بن علي بن حديثة، وأخوه أبو بكر بن علي، وأحمد بن حجي وأولاده واخوته، وعيسى بن مهنا وأولاده وأخوه؛ وكلهم رؤساء أكابر وسادات العرب، وجوهها، ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة ومبيت عظيم، الى رونق بيوتهم ومنازلهم

من ثق منهم تقل: لا قيتُ سيدهم

مثلُ النجوم التي يسري بها الساري

ثم قال: الا أنهم مع بُعد صيتهم قليل عددهم. قال في «مسالك الابصار» لكنهم كما قيل:

تُعيّرُنا أنّا قليلٌ عديدنا فقلتُ لها: ان الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارُنا عزيز وجار الاكثرين ذليل

ولم يزل لهم عند الملوك المكانة العلية والدرجة الرفيعة، يحلونهم فوق كيوان، وينوعون لهم أجناس الاحسان. قال الحمداني: وَفَد فرج بن حية على المعز أيبك فأنزله بدار الضيافة وأقام أياماً، فكان مقدار ما وصل اليه من عين وقماش واقامة — له ولمن معه — ستة وثلاثين ألف دينار قال: واجتمع أيام «الظاهر بيبرس» جماعة من آل ربيعة وغيرهم فحمل لهم من الضيافة خاصة في المدة اليسيرة أكثر من هذا المقدار وما يعلم ما صرف على يدي من بيوت الاموال والخزائن والعلال للعرب خاصة الا الله تعالى

واعلم ان آل ربيعة قد انقسموا الى ثلاثة أفخاذ، هم المشهورون منهم، ومن عداهم أتباع لهم وداخلون في عددهم، ولكل من الثلاثة أمير مختص به

الفخذ الاول — (آل فضل) — وهو فضل بن ربيعة المقدم ذكره ، وهم رأس الكل وأعلاهم درجة وأرفعهم مكانة. قال في « مسالك الابصار » : وديارهم من حمص الى قلعة جعبر ، الى الرحبة ، آخذين الى شرقي الفرات وأطراف العراق حتى ينتهي عددهم قبلة بشرق الى الوشم ، آخذين يساراً الى البصرة ، ولهم مياه كثيرة ومناهل موروده :

ولها منهل على كل ماء وعلى كل دمنة آثارُ

ثم نقل المؤلف بعد هذا نبذة من (مسالك الابصار) في تشعب بني فضل الى شعب كثيرة وان أفضل بيت من بيوتهم في عهد مؤلفه (آل عيسى) وفروعه وقوله فيهم : وهؤلاء آل عيسى في وقتنا هم ملوك البر فيما بعد واقترب ، وسادات الناس ولا تصلح الا عليهم العرب

قال المؤلف : وأما الامرة عليهم فقد جرت العادة أن يكون لهم أمير كبير منهم يولى من الابواب السلطانية ويكتب له تقليد شريف بذلك ، ويلبس خلعة أطلس اسوة النواب ان كان حاضرا ، أو يجهز اليه ان كان غائبا ، ويكون لكل طائفة منهم كبير قائم مقام أمير عليهم ، وتصدر اليه المكاتبات من الابواب الشريفة الا انه لا يكتب اليه تقليد ولا مرسوم . قال في (مسالك الابصار) ولم يسمح لأحد منهم بامرة على العرب بتقليد من السلطان الا من أيام (العادل أبي بكر) أخي السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب)

ثم ذكر بعض امرائهم وموالاة بعضهم للتتار وشؤونهم مع سلاطين مصر

وبعد انتهاء الكلام على الفخذ الاول من آل ربيعة قال

(الفخذ الثاني من آل ربيعة — آل مرا) نسبة الى مرا بن ربيعة. وقال في (مسالك الابصار) ديارهم من بلاد الجيدور والجولان الى الزرقاء والخليل الى بصرى ، ومشرقة الى الحرة المعروفة بحرة كشت قريبا من بكة المشرفة الى شمياه الى نيران تزيد الى الهضب المعروف بهضب الواقوصة وهذا مطلب لهم البر وعندهم المرعى أوان خصب الشتاء فتوسعوا في الاودية وأطالوا عند الايام المسهلة حتى تعود مكة المشرفة وراءه

ظهورهم ، ويكاد سهيل يصير شامهم ، ويصيرون بوجوههم مستقبلين الشام . وقد تشعب آل مرا أيضا شعبا كثيرة ، وهم آل احمد بن حجي وفيهم الامرة ، وآل مسخر ، وآل نمي . وآل بقرة ، وآل شماء

وممن ينضاف اليهم ويدخل في امرة أمرائهم حارثة ، والخلاص ، لام ، وسعيدة ، ومدلج ، وقرير ، وبنو صخر ، وزيد حوران : وهم زيد صرخد ، وبنو غفي ، وبنو عرفال ، ويأتيهم من عرب البرية آل ظفير ، والمناجعة ، وآل سلعان ، وآل غري ، وآل برجس ، والحرسان ، وآل المنيرة ، وآل أبي فاضل والزراق ، وبنو حسين الشرفاء ، ومطير ، وخثعم ، وعدوان ، وغنزة . قال : وآل مرا أبطال مناجيد ورجال مناديد ، وأفياك قل (كونوا حجارة أو حديدا) ، لا يعد منهم عثرة العبي ، ولا عرابة الأوسي ، لا أن الحظ يحظ بني عمهم [أكثر] مما يحظهم ، ولم تزل بينهم وبين الحرب ، ولهم في أكثرها النلب .

قال الشيخ شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي رحمه الله : كنت في نوبة حمص في واقعة التتار جالسا على سطح باب الاصطبل السلطاني بدمشق اذ أقبل آل مرا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح على الخيل المسومة ، والجياد المطهمة . وعليهم الكرغندات الحمر الاطلس المعدني ، والديباج الرومي ، وعلى رءوسهم البيض ، مقلدين بالسيوف ، وبأيديهم الرماح كأنهم صقور على صقور ، أمامهم العبيد تحمل على الركائب ، ويرقصون بتراقص المهارى ، وبأيديهم الجنائب ، التي اليها عيون الملوك قديما ، ووراءهم الظعائن والحمول ، ومعهم مغنية لهم تعرف بالحضرمية ظاهرة الدمامة ، سافرة من الهودج وهي تغني :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ليالي لاقينا جذاماً وحميرا
ولما لقينا عصبة القلب يتود وزجرداً للمنية صُمَّرا
فلما فرعنا النبع نابع (١) نبعه يفيض أبت عيدانه أن تكسرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثلها (٢) ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

وكان الامر كذلك ، فان الكسرة أولا كانت على المسلمين ثم كانت لهم الكرة على التتار ، فسبحان منطق الالسنة ومصرف الاقدار

الفخذ الثالث — من آل ربيعة (آل علي) — وهم فرقة من آل فضل المتقدم ذكرهم ينتسبون الى علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . قال في « مسالك الابصار » : وديارهم مرج دمشق وغوطتها ، بين إخوتهم آل فضل وبني عمهم آل مرا ، ومنتهاهم الى الحوف والجبابة الى السكة ، الى البرادع قال في « التعريف » : وانما نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الامرة الى عيسى بن مهنا وبقي جار الفرات في تلاليب التتار . قال في « مسالك الابصار » : وهم آل بيت عظيم الشأن ، مشهور السادات ، الى أموال جمة ، ونعم ضخمة ومكانة في الدول عالية . وأما الامرة عليهم فقد ذكر في « مسالك الابصار » أنه كان أميرهم في زمانه رملة بن جماز بن محمد بن أبي بكر بن علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . ثم قال : وقد كان جده أميرا ثم أبوه . قلد الملك الاشرف خليل بن قلاوون جده محمد بن أبي بكر إمرة آل فضل ، حين أمسك مهنا بن عيسى . ثم يقلدها من الملك الناصر أخيه أيضاً حين طرد مهنا وسائر اخوته وأهله .

(١) المراد بالنبع النبع المعروف وهو في الاصل شجر تتخذ منه (٢) الصواب بمثلها لأن الكأس مؤنثة

قال : ولما أمّر ملة كان حدث السن فجده أقامه بنو محمد بن أبي بكر وقدموا على السلطان بتقادمهم وتراموا على الامراء وخواص السلطان وذوي الوظائف فلم يحضرهم السلطان الى عنده ولا أدنى أحدا منهم ، فرجعوا بعد معاينة الهين ، بمختفي حنين ، ثم لم يزالوا يتربصون به الدوائر ، وينصبون له الحبائل ، والله تعالى يقيه سيئات ما مكروا حتى صار يحيد يومه ، وفرقد دهره ، والسود في مشيرته ، البيض لوجوه الايام بسيرته ، وله اخوة ميامين كبرا ، هم أمراء آل فضل وآل مرا . وقد ذكر القاضي تقي الدين ابن ناظر الجيش في « التعريف » : أن الامير عليه في زمانه في الدولة الظاهرية برقوق كان عيسى بن جماز هو المراد منه

هذا تعريف وجيز بآل فضل وآل مرا من عرب الشام ، ثم ذكر القلقشندي في الجزء الثاني عشر من صبح الأعشى في الكلام على من يولى عن الابواب السلطانية بمصر ممن هم خارج دمشق امراء العربان ، وانهم طبقتان ، الطبقة الأولى من يكتب له منهم تقليد في قطع النصف بـ « المجلس العالي » وهو أمير آل فضل خاصة سواء كان مستقلا بالامارة أو شريكا لغيره فيها . وبعد ان ذكر صورة تقليدين لهؤلاء أعني امراء ال فضل ذكر ان الطبقة الثانية التي تلي طبقتهم من عرب الشام هي التي يكتب لها بالامرة مرسوم شريف لا تقليد — وانهم مرتبتان المرتبة الأولى من يكتب له في قطع النصف وهم ثلاثة (الأول) أمير آل علي (والثاني) المقدمة على عربي ال فضل وال علي (والثالث) أمير ال مراء . وذكر نموذجا مما يكتب لكل منهم ،

وسننشر من ذلك ما فيه العبرة لمن يقابل أمثال هذا وذاك بما صارت اليه عرب الشام وغيرهم من بعد استيلاء الترك على مصر والشام ، الى هذه الأيام ، فقد كانت قبائل الاعراب قوة عظيمة للدول المصرية والشامية فاضعفتها الدولة التركية ، وما كان سبب ذلك الا محافظة الترك على عجمتهم ، وتعصبهم لتركيتهم ، على ما كانت عليه من النفر والبداوة فانها لم تدون لها المعاجم ، ويبدأ بجعلها لغة علم الا في النصف الثاني من القرن الماضي (الثالث عشر للهجرة) بعد ضعف الدولة وتذبيب الانحلال فيها . ولو حافظت على العرب والعربية لما حل بها وبالاسلام ، ما يكابد منه في هذه الايام ، وسنبين ذلك بالجلاء التام .